

إحياء علوم الدين

لدغ العقارب والحيات .

فهذا القدر كاف في التنبيه على مجارى فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عنه ربه تعالى .

القسم الثاني الفكر في جلال اﷻ وعظمته وكبريائه .

وفيه مقامان المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق اﷻ تعالى ولا تفكروا في ذات اﷻ وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر .

بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال اﷻ تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس فإنه لا يطيقه البتة بل يختفي نهارا وانما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض .

وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات اﷻ تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات اﷻ سبحانه وصفاته فإن أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن اﷻ تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطبقوا سماعه ومعرفته .

بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يتعاطم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخما له مقدار وحجم .

فأنكروا هذا وطنوا أن ذلك قدح في عظمة اﷻ وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لطن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء .

وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق اﷻ تعالى وتقديسه حتى يفهم العظمة .

بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أنقص مني أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقول أكثر الخلق قريب من هذا

العقل وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتى فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون .

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكننا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقديسه وتعالیه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته .

فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لا نطبق النظر إلى صفاته كما أنا نطبق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس .

ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر .

وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود .

ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقديس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كما أن قوام